

توطئة:

إنَّ الحدثَ هي ذلك الوعي المتجدّد بمتغيرات الحياة، والمستجدات الحضارية، والتحرّر من قيود الماضي، فالحدثُ هي استجابة حضارية لتجاوز الثوابت، وتأكيد مبدأ استقلالية العقل الإنساني اتجاه التجارب الفنية السابقة. بل ورفضاً لفكرة التقاليد ذاتها وتأكيداً للحركة المتجدّدة والمستمرة في الأدب والفن.

(1) مفهوم الحدث:

أ) المدلول اللغوي للحدث: تشتق كلمة الحدث من جذرها اللغوي (حَدَثَ)، ويُقال: أخذني من الأمر ما حدثَ وما قدّمَ، أي ما يستجدُّ من الأمر وما كان منه قديماً، ويُقال: حدث السَّيْنِ، أوَّلُهُ، ويُعبّرُ عن بدايات الأمور بحدثها، ويُقال أخذ الأمر بحدثه، أي بأوَّلِهِ ومبتدأه.

والحدث في سياق الفن والأدب هي مواكبة العصر بمواصلة التجديد في الأشكال الفنية والأساليب الأدبية، فكلمة الحدث تدل على شيء مبتكر ومستجد دون مثيل سبقه، ونقيض الحدث في اللغة القِدَم.

ب) التعريف الاصطلاحي للحدث: تتنوع تعريفات الحدث وفقاً لميدان ممارستها، فهي بشكلها العام، توصف بأنّها منهج فكري يتبنى التجديد، وقد نتج عنه أسلوب تعبيرى متحيّز لتحديث شكل ومضمون الإبداعات الأدبية والفنية، مع إصراره على رفض الصلة بالموروث القديم في الفن والأدب.. فقد كانت بدايات هذا المنهج التجديدي مع أواخر القرن التاسع عشر، إلى منتصف القرن العشرين، سيراً على خطى التقدم الصناعي والاجتماعي والفلسفي الذي شهدته القارة الأوروبية والعالم، لاسيما بعد الحرب العالمية الأولى.

(2) مظاهر الحدث في أول نشأتها :

رافق الحدث في المجال الأدبي، ظهور ما يعرف بالشعر الحر، وهو نمط شعري مستحدث، وقد تأثر أسلوب السرد القصصي كذلك بالمنهج الحداثي، حيث أسس بعض الأدباء المناصرين للمنهج الحداثي ما يعرف بالمنهج الوصفي، وبالإنجليزية (Imagism) حيث كان أدبهم وشعرهم معتمد على عدة قواعد،

وهي: المباشرة في الطرح الذاتي أو الموضوعي لفكرة النص، وذلك باختيار الكلمات المباشرة بعناية والمعبرة عن نمط المنهج الحدائي، والالتزام بسلسلة الجزس الموسيقي للقصيدة، دون التقيّد برتابة إيقاع الشعر القديم؛ عكست هذه القواعد مدى الإصرار في تطبيقهم للمنهج المستجد على الشعر والأدب، إلا أن الحرب العالمية الأولى حالت دون انتشاره السريع، بالرغم من أن الشعر الحرق قد نقل معاناة الناس وعبر عن خيبة الأمل بعد انتهاء الحرب، ولكن سرعان ما نشأ جيل شعري جديد في خمسينيات القرن العشرين، وقد أطلق العنان لإبداعه في تجديد الأنماط الشعرية شكلاً ومضموناً.

(3) ميلاد الحداثة الشعرية:

(أ) عند الغرب: ظهر تيار الحداثة في الغرب نتيجة للمد الطبيعي الذي دخلته أوروبا منذ العصور الوثنية في العهدين اليوناني والروماني، امتداداً إلى عصر الظلمات، مروراً بالعصور المتلاحقة التي تزامنت بكل أنواع المذاهب الفكرية، والفلسفات الوثنية المتناقضة والمتلاحقة، وقد كان كل مذهب عبارة عن ردة فعل لمذهب سابق، وكل مذهب من هذه المذاهب كان يحمل في ذاته عناصر اندثاره وفنائه.

وقد اختلف كثير من الذين أرخوا ونظروا للحداثة الغربية حول بداياتها الأولى، وعلى يد من ظهرت ونشأت، ورغم ذلك يتفق بعضهم على أن إرهاباتها المبكرة بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي على يدي "بودلير" الفرنسي صاحب ديوان "أزهار الشر". ولكنها لم تنشأ من فراغ، بل هي امتداد لإفرازات المذاهب والتيارات الفكرية والاتجاهات الأدبية والأيدلوجية المتعاقبة التي عاشتها أوروبا في القرون الخوالي، والتي قطعت فيها صلتها بالدين والكنيسة وتمردت عليه، وقد ظهر ذلك جلياً منذ ما عرف بعصر النهضة في القرن الخامس عشر الميلادي، عندما انسلخ المجتمع الغربي عن الكنيسة وثار على سلطاتها الروحية.

وكان من الطبيعي أن نرى تخطيط الغرب، وتقلباته وثوراته على كل شيء من حوله، لذا نجدهم يتقلبون من خلال المذاهب الفكرية والأدبية، فتولدت عندهم الكلاسيكية التي كانت امتداداً طبيعياً لنظرية المحاكاة والتقليد التي أطلقها أرسطو، والتي تعني أن الإنسان محدود الطاقات، متمسك بالتقليد، مع الميل إلى التحفظ واللياقة، ومراعاة المقام، والخيال المركزي المجند في خدمة الواقع.

ثم تأسس الاتجاه الرومانسي على أنقاض الكلاسيكية التي وقفت عاجزة أمام تحقيق ما كان يصبو إليه الغرب من التخلص من آثار القديم ومحاكاته، فوجدوا ضالّتهم في مذهب ثوري متمرد على كل أشكال القديم وآثاره، فقدست الرومانسية الذات، ورفضت الواقع، وثارَت على الموروث، وادعت أن الشرائع والعادات والتقاليد هي التي أفسدت المجتمع، ويجب العمل على تحطيمها، والتخلص منها

ولكن الأمر غير المتوقع مع ما نادى به الرومانسية ، وجاهدت من أجل تحقيقه أنها قد فشلت فشلا ذريعا في تعيير الواقع ، فأوغل دعائها في الخيال والأحلام ، والتحليق نحو المجهول.

ثم فروا منها إلى الواقعية التي تطورت فيما بعد إلى الرمزية التي كانت حلقة الوصل بين تلك المذاهب الفكرية والأدبية، وبين ما عرف اليوم بالحدثة، وكان على رأس المذهب الرمزي الكاتب والأديب الأمريكي المشهور " إدغار آلان بو " الذي تأثر به رموز الحدثة وروادها في الغرب أمثال: مالارامييه، وفاليري، وموبسان، كما كان المؤثر الأول والمباشر في فكر وشعر عميد الحداثيين في الغرب والشرق على حد سواء الشاعر الفرنسي المشهور " بودلير "

وقد نادى إدغار: بأن يكون الأدب كاشفا عن الجمال، ولا علاقة له بالحق والأخلاق ، وهذا ما انعكس على حياته بشكل عام، حيث كان موزعا بين القمار والخمر والفسل الدراسي والعلاقات الفاسدة، ومحاولة الانتحار. وعلى خطى إدغار سار تلميذه بودلير ممعنا في الضلال ومجانبا للحق والفضيلة.

ويعد بودلير مؤسس تيار الحدثة من الناحية الفنية الأدبية ، والذي نادى بالغموض في الأحاسيس والمشاعر، والفكر والأخلاق، كما قام المذهب الرمزي الذي أرادته على تغيير وظيفة اللغة الوضعية بإيجاد علاقات لغوية جديدة تشير إلى مواضع لم تعهدها من قبل... ويطمح أيضا إلى تغيير وظيفة الحواس عن طريق اللغة الشعرية ، لذا لا يستطيع القارئ ، أو السامع أن يجد المعنى الواضح المعهود في الشعر الرمزي . كما يذكر د . عبد الحميد جيدة في كتابه (الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر). ومما لا جدال فيه أن الحدثة كمذهب أدبي تجديدي قامت في أساسها الأول على الغموض وتغيير اللغة، والتخلص من الموروث بكل أشكاله، وأجناسه، وتجاوزهم للساند والنمطي.

وكان بودلير الذي نمت وترعرعت على يديه بذرة الحدثة من أسوأ ما عرفت الآداب العالمية خلقا وإمعانا في الرذيلة ، وممارسة لكل ما يتنافى مع الأخلاق والعقيدة . يقول عنه مصطفى السحرطي في مقدمة ترجمة ديوان أزهار الشر لبودلير " لقد كانت مراحل حياته منذ الطفولة نموذجا للضياع والشذوذ، ثم بعد نيل الشهادة الثانوية قضى فترة في الحي اللاتيني، حيث عاش عيشة فسوق وانحلال ... ولأذ في المرحلة الأخيرة من حياته بالمخدرات".

ويقول عنه الشاعر إبراهيم ناجي مترجم ديوان أزهار الشر " إنَّ بودلير كان يحب تعذيب الآخرين ويتلذذ به ، وكان يعيش مصابا بمرض انفصام الشخصية. "

ولم يكن الطعن في شخصية بودلير متوقفة على بعض الشعراء والنقاد العرب الذين عرفوه من خلال شعره، وعایشوه في مرحلة زمنية معينة في النصف الأول من القرن العشرين، بل كان لأبناء جلدته أقوالاً وآراء كثيرة حول هذه الشخصية الحيّة الميّتة ، يقول عنه أحد كتاب الغرب : " إن بودلير شيطان من طراز خاص " . ويقول عنه آخر : " إنك لا تشم في شعره الأدب والفن ، وإنما تشم منه رائحة الأفيون " .

ثم أعقب بودلير رائد من رواد الحداثة في الغرب وهو (رامبو) الذي لا يقل شأنًا عنه في المناداة إلى الهدم العقلاني لكل الحواس، وأشكال الحب والعذاب والجنون، ودعا إلى أن يكون الشعر رؤية ما لا يرى، وسماع ما لا يسمع، وفي رأيه أن الشاعر لا بد أن يتمرد على التراث ن وعلى الماضي، ويقطع أي صلة مع المبادئ الأخلاقية والدينية، وتميز شعره بغموضه، وتغييره لبنية التراكيب، والصياغة اللغوية عما وضعت عليه، وتميز أيضا بالصور المتباعدة المتناقضة الممزقة، كما يذكر د . عبد الحميد جيدة في كتابه (الاتجاهات الحديثة في الشعر العربي المعاصر).

وقد تعاقب ركب الحداثيين في الغرب، وسلكوا نفس الطريق الذي بدأه بودلير، ورامبو، وساروا على نهجهما ، ومن هؤلاء مالارمييه ، وبول فاليري ، حتى وصلت الحداثة الغربية شكلها المتكامل النهائي على يد الأمريكي اليهودي عزرا باوند ، والإنجليزي توماس اليوت.

وأينعت ثمارها الخبيثة على أيدي الشيوعيين من أمثال نيرودا ، ولوركا ، وناظم حكمت ، وفوتشكو ، والوجوديين أمثال: سارتر ، وسيمون دي بوفوار ، وألبير كامو ، وأنت أكلها على أيدي الجيل المنظر والداعم لها والمحفز على السير في ركبها من أمثال: ألوي أراجون ، وهنري لوفيفر ، وأوجين جراندا ، ورولان بارت ، ورومان ياكوبسون ، وليفي شتراوس ، وبياجيه ، وغيرهم كثير.

(ب) عند العرب: امتد الفكر الحداثي الغربي إلى أدبنا العربي ولغتنا وفكرنا ومعتقداتنا وأخلاقياتنا. وهي كغيرها من المذاهب الفكرية والتيارات الأدبية التي سبقتها إلى البيئة العربية الكلاسيكية، والرومانسية والواقعية والرمزية والوجودية، وجدت لها في فكرنا وأدبنا العربي ظروف وعوامل سرعان ما نمت وترعرعت على أيدي روادها العرب، أمثال: غالي شكري، وكاهن الأول والمنظر لها على أحمد سعيد المعروف " بأدونيس " وزوجته خالدة سعيد من سوريا ، وعبد الله العروي من المغرب، وكمال أبو ديب من فلسطين، وصالح فضل وعبد الصبور من مصر ، وعبد الوهاب البياتي من العراق، وعبد العزيز المقالح من اليمن، وحسين مروة من لبنان، ومحمود درويش وسميح القاسم من فلسطين،

ومحمد عفيفي مطر وأمل دنقل من مصر ، وعبد الله الغدامي وسعيد السريحي من السعودية،
ومحمد أركون من الجزائر،... وغيرهم.

وكان ميلاد الحداثة الشعرية العربية مرتبطاً بميلاد مجلة لبنانية هي (مجلة الشعر) الذي صدر
عددتها الأول عام 1957م، ولا يمكننا الحديث عن الحداثة العربية المعاصرة دون الرجوع إلى هذه
المجلة، التي حمل أصحابها وخاصة مؤسسوها، وفي مقدمتهم: أدونيس ويوسف خال، والأدباء الذين
أيدوهم لواء الرفض والتغيير والبحث عن البديل المناسب لثقافة وأدب وفنٍ تحجرت مقاييسه
وقواعده النظرية.

لقد أسس منظروا (مجلة الشعر) بوعي كامل لمرحلة جديدة في الشعر العربي، مفهومات وطرائق
تعبير، وأن مسألة التجديد في الشعر، قد تجاوزت التجديد الشكلي، كما تجاوزت الخروج عن النسق
التفعيلي الخليلي، ودعت إلى القطيعة الكتابية مع الأنماط التقليدية.

يقول أدونيس في كتابه (الثابت والمتحول) كما ذكر الدكتور محمد هدارة في مقال له نشر في مجلة
الحرس الوطني السعودي: " لا يمكن أن تهض الحياة العربية، ويبدع الإنسان العربي إذا لم تهدم
البنية التقليدية السائدة للفكر العربي، ويتخلص من المبنى الديني التقليدي الاتباعي ".

يتضح أن رواد الحداثة وعلى رأسهم أدونيس لم يكونوا دعاة للتجديد بمفهومه المتعارف عليه في
اللغة ولا يُعنى بالأدب والشعر كما يدعون، وإنما هم دعاة للهدم والتخريب، كما يعلنون عن ذلك
صراحة في كتبهم النقدية ودواوينهم الشعرية ومؤلفاتهم بشكل عام . فقد ضل كثير منهم يخلط بين
الحداثة كمنهج فكري، يدعو إلى الثورة والتمرد على الموروث والسائد والنمطي بأنواعه المختلفة عقيدةً
ولغةً وأدباً وأخلاقاً، وبين المعاصرة والتجديد الذي يدعو إلى تطوير ما هو موجود من ميراث أدبي ولغوي
والإضافة عليه بما يواكب العصر، منطلقاً من ذلك الإرث الذي لا يمكن تجاوزه بأي حال من الأحوال.

تقول الكاتبة الحداثية خالدة سعيد في مجلة (فصول) بعنوان: الملامح الفكرية للحداثة: " إن
التوجهات الأساسية لمفكري العشرينات تقدم خطوطاً عريضة تسمح بالمقول إن البداية الحقيقية
للحداثة من حيث هي حركة فكرية شاملة، قد انطلقت يوم ذاك، فقد مثل فكر الرواد الأوائل قطيعة
مع المرجعية الدينية والتراثية كمعيار ومصدر وحيد للحقيقة ، وأقام مرجعين بديلين : العقل والواقع
التاريخي، وكلاهما إنساني، ومن ثم تطوري، فالحقيقة عن رائد كجبران ، أو طه حسين لا تلمس
بالعقل، بل تلمس بالاستبصار عند جبران ، والبحث المنهجي العقلاني عند طه حسين " .

وَيُعَدُّ أدونيس المنظر الفكري للحدثيين العرب الذي أخذ على عاتقه نبش كتب التراث ليستخرج منها كل شاذ ومنحرف من الشعراء والأدباء والمفكرين من أمثال: بشار بن برد وأبي نواس، لأن في شعرهم كثيرا من التشكيك في العقائد، والسخرية منها، والدعوة للانحلال الخلقي.

لقد أراد أدونيس لشعريته الغوص في آفاق جديدة تتجاوز النموذج الثابت ويدخلها مجال الإبداع، وذلك بإرساء قواعد يجب على الشاعر والناقد التقيّد بها، بالإضافة إلى إدخال عناصر ومكونات من شأنها إضفاء جمالية على النص الشعري أهمها: الغموض والرؤيا والخيال والانزياح.